تمثّلات الإسراء والمعراج في الأدب العربي: من السرد التراثي إلى الرؤية الحديثة

الباحث/ سيد عبد الواحد خفاجي
إشراف
الأستاذة الدكتورة/ سوسن ناجي رضوان

الملخص باللغة العربية:
يسعى هذا البحث إلى استكشاف الكيفية التي مثّل بها الأدب العربي، قديمه وحديثه، قصة الإسراء والمعراج، بوصفها حدثًا محوريًا في الثقافة الإسلامية، غزير الدلالات الرمزية والدينية. وتتناول الدراسة تمثّلات هذه الرحلة من زاويتين: الأولى تراثية، تتمثّل في النصوص السردية والدينية التي حفظت القصة بوصفها خطابًا عقديًا تثبيتيًا، والثانية حداثية، ظهرت فيها القصة بوصفها رمزًا للتحرر، والتوق، والاغتراب، في سياقات سياسية وفكرية معاصرة.
وقد اعتمدت الدراسة مناهج تحليلية متكاملة، من بينها المنهج النصي، والتاريخي، والتأويلي، للكشف عن التحولات الجمالية والفكرية التي طرأت على توظيف هذه القصة في الأعمال الأدبية، شعرًا وسردًا.
ويروم هذا البحث الكشف عن تجليات وتوظيف مرويات الإسراء والمعراج بوصفها حادثة دينية وسيرية وعجائبية في الرواية الحديثة، وذلك من خلال جمع من النماذج المختارة التي استلهمت الحادثة إن صراحة وإن تضميناً، والكشف عن أبعادها ودلالاتها بل وفنياتها كذلك .
وخلصت إلى أن الأدب العربي الحديث أعاد توظيف رحلة المعراج في سياقات رمزية تجاوزت الدلالة العقدية، لتصبح أداة للتعبير عن قضايا الذات، والحرية، والمقاومة، في مواجهة التحديات الوجودية والسياسية الراهنة.

الكلمات المفتاحية: الإسراء والمعراج، التمثّلات الأدبية ، السرد التراثي، التخييل الديني، التناص الديني .

Abstract in English:

This research seeks to explore how Arabic literature, both ancient and modern, has represented the story of the Isra' and Mi'raj (Night Journey and Ascension), as a pivotal event in Islamic culture, rich in symbolic and religious connotations. The study examines representations of this journey from two perspectives: the first is traditional, represented by narrative and religious texts that preserved the story as a doctrinal, affirmative discourse; and the second is modern, in which the story appears as a symbol of liberation, longing, and alienation in contemporary political and intellectual contexts.

The study adopts integrated analytical approaches, including textual, historical, and interpretive approaches, to reveal the aesthetic and intellectual transformations that have occurred in the use of this story in literary works, both poetry and narrative.

This research aims to reveal the manifestations and employment of the narratives of Isra and Mi'raj as a religious, biographical and miraculous incident in the modern novel, through a collection of selected models that were inspired by the incident, if explicitly but included, and to reveal its dimensions and connotations and even its techniques as well.

It concludes that modern Arabic literature has repurposed the Isra' and Mi'raj (Night Journey) in symbolic contexts that transcend doctrinal significance, becoming a tool for expressing issues of self, freedom, and resistance in the face of current existential and political challenges.

Keywords:

Isra and Mi'raj - Literary Representations - Traditional Narrative - Religious Fiction - Religious Intertextuality

مقدمة:

تُعدّ قصة الإسراء والمعراج من أبرز الوقائع الدينية التي احتلّت موقعًا مركزيًا في الوعي الإسلامي الجمعي، نظرًا لما تنطوي عليه من أبعاد عقدية وروحية، فضلًا عن رمزيتها العميقة في الارتقاء من العالم الأرضي إلى العالم السماوي. وقد كانت هذه القصة مصدر إلهام خصب للأدباء والكتاب عبر العصور، فتمثّلت في نصوصهم بصور متعددة، تراوحت بين التفسير العقدي، والتأويل الصوفي، والإبداع الأدبي، مما أتاح لها حضورًا أدبيًا مستمرًا ومتحولًا في آنٍ واحد.

لقد تعامل الأدب العربي القديم مع الإسراء والمعراج بوصفه سردًا إعجازيًا يثبّت الإيمان، ويعزّز مكانة النبي محمد في المخيال الجمعي، فظهرت نصوص تحكي تفاصيل الرحلة بأسلوب تقريري أو وعظي، كما هو الحال في كتب السير والمغازي، ثم تطورت في الكتابات الصوفية إلى تمثيلات رمزية تتجاوز المعنى الظاهري إلى التعبير عن رحلة الروح و"معراج القلب" إلى الحقّ، كما عند ابن عربي والنفري. أما في العصور الحديثة، فقد أقبل الأدباء والشعراء على استلهام هذه القصة في ضوء قضايا العصر، فصارت الرحلة تمثيلًا رمزيًا للصراع بين القمع والتحرر، أو للتوق إلى الخلاص الروحي والسياسي، كما برز في أشعار أدونيس، وأمل دنقل، وغيرهم.

إنّ هذه الدراسة تسعى إلى تتبّع تحولات تمثّل الإسراء والمعراج في الأدب العربي، من السياقات التراثية إلى المقاربات الحداثية، للكشف عن الكيفية التي أعاد بها الأدباء قراءة هذا الحدث التأسيسي في ضوء متغيرات الواقع الثقافي والاجتماعي. وتهدف إلى تحليل الأبعاد الجمالية والفكرية التي رافقت هذه التمثّلات، من حيث اللغة والرمز والسرد والدلالة، مبرزةً كيف تَحوّل النص الديني من مصدر إلهام مباشر إلى مرجعية رمزية قابلة لإعادة البناء وفق حاجات كل عصر.

وبذلك تندرج الدراسة في سياق البحث في التناص الديني والأدبي، كما تضيء جانبًا مهمًا من العلاقة بين المقدّس والتخييل، وبين الثابت الديني والمتغيّر الجمالي، في ضوء ما يشهده العالم العربي من أسئلة الهوية والانتماء، وحاجة الأدب إلى إعادة إنتاج التراث في قالب معاصر.

أولًا: أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة من تقاطعها مع ثلاثة محاور رئيسة:

المحور الديني: حيث تمثّل رحلة الإسراء والمعراج حدثًا محوريًا في العقيدة الإسلامية، محمّلًا بأبعاد رمزية وروحية.

المحور الأدبي: إذ أفرز هذا الحدث نصوصًا سردية وشعرية غنيـــة، تراوحـــت بـــين النقـــل الحرفي والتأويل الرمزي.

المحور الثقافي الحداثي: حيث أصبحت الرحلة معادِلًا رمزيًا للاغتراب والبحث عن الخلاص، في سياق التحولات الفكرية والسياسية المعاصرة.

وبذلك، تسهم الدراسة في كشف مسارات التفاعل بين النص المقدّس والخيال الأدبـــي، وتتبـــع تحولات الخطاب من التثبيت العقدي إلى التعبير الجمالي والفلسفي.

ثانيًا: أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

١. تتبّع صور وتمثلات الإسراء والمعراج في الأدب العربي عبر العصور.
٢. تحليل البنية الفنية والجمالية لنصوص المعراج في السرد التراثي والصوفي.
٣. الكشف عن الأبعاد الرمزية والوظيفية للرحلة في الأدب الحديث.
٤. رصد التحولات في المعالجة الأدبية لقصة المعراج من الثبات العقدي إلى التخييل الرمزي.
٥. بيان أثر الظروف التاريخية والثقافية في تشكيل تمثلات المعراج لدى الأدباء العرب.

ثالثًا: مشكلة الدراسة:

تتحدد مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس الآتي:

كيف تمثّل الأدب العربي، في عصوره المختلفة، قصة الإسراء والمعراج، وما الذي تغيّر فـــي معالجته لهذه القصة بين الخطاب التراثي والرؤية الحديثة؟

وتنبثق عنه التساؤلات الفرعية الآتية:

١. ما الخصائص الفنية والموضوعية لنصوص المعراج في السرد التراثي؟
٢. كيف تناول الأدب الصوفي رحلة الإسراء والمعراج من حيث الرمز والتأويل؟
٣. ما صور استلهام الإسراء والمعراج في الشعر والرواية العربية الحديثة؟
٤. كيف استُثمرت هذه الرحلة في التعبير عن قضايا وجودية أو سياسية معاصرة؟
٥. ما دلالة التحول من التلقي الديني المباشر إلى التوظيف الجمالي الرمزي في الأدب؟

رابعًا: منهج الدراسة:

أفدت من عدد من المناهج وهي:

المنهج التحليلي النصي: لتحليل البنية الفنية والجمالية للنصوص.

المنهج التاريخي: لتتبع تطور التناول الأدبي للقصة عبر العصور.

المنهج التأويلي (الهرمنيوطيقي): لفهم البعد الرمزي والروحي والمعرفي لتمثلات الرحلة.

المنهج الثقافي: للكشف عن علاقة التمثيل الأدبي للمعـــراج بـــسياقه الاجتمـــاعي والـــسياسي والثقافي.

المبحث الأول: مرويات الإسراء والمعراج في النثر القديم

- استلهام الإسراء والمعراج عند المعري في رسالة الغفران:

من خلال تصفح رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، يتضح أن المعري تأثر بشكل كبير بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، مما لا يترك مجالاً للشك في ذلك. في أدبه، وفي رحلته إلى العالم الآخر، أجرى أبو العلاء حديثاً مع سكان هذا العالم. وقد سبقه في هذا النوع من الرحلات كل من هوميروس وفيرجيل ويوحنا في رؤياه، بالإضافة إلى حادثة الإسراء والمعراج، والعديد من القصص والحكايات التي تتعلق بالرحلات إلى ما بعد القبر.(١)

جاء معراج أبي العلاء بعد أن زار بغداد، عاصمة الخلافة، حيث اعترف له البغداديون بأنه أعجوبة زمانه في حفظه وعلمه باللغة. لكن العاصمة سرعان ما أظهرت له وجهها الحقيقي، مما دفعه إلى إعادة النظر فيما اكتسبه من معارف ليكون في مقامه هناك. فقد أدرك أن الأدب لا قيمة له ما لم يُقدَّم للسلطان، وأنه يجب أن يتملق السادة ذوي الجاه والنفوذ.(٢)

عاد أبو العلاء إلى منزله في المعرة، ليجد أن والدته قد توفيت دون وداع. أغلق بابه في وجه الزائرين، حتى لو كانوا من الأقارب، لكنه سرعان ما رق قلبه لطلب العلم وفتح بابه لاستقبال الطلاب من كل حدب وصوب. انقطع للتدريس والإملاء، وعندما كان يخلو إلى نفسه في أوقات فراغه، كان يكرس وقته للعبادة والتأمل. لم يكن اختياره للعزلة نابعًا من إرادته، بل كان نتيجة عجزه عن تحمل نكران العصر وفساد المجتمع من حوله.(٣)

تعد "رسالة الغفران" رحلة خيالية يجسد فيها المعري رؤيته للجنة والنار، معبراً عن فهمه لهما وموقفه من الأدب والشعر والشعراء، بالإضافة إلى الحياة والمجتمع. وقد استلهم المعري من قصة الإسراء والمعراج والمعطيات الإسلامية المتعلقة بالجنة والنار، رغم أن تصويره للجنة والنار لا يعكس بالضرورة الصورة التقليدية لهما في الإسلام. وبالتالي، فإن تصوير المعري للجنة في "رسالة الغفران" يعكس رؤيته الشخصية لها.(٤)

يتضح أن حادثة الإسراء والمعراج تركت أثراً عميقاً في "رسالة الغفران" التي كتبها أبو العلاء المعري، حيث استلهم من خياله الواسع تفاصيل العالم الآخر، بما في ذلك الجنة وما تحتويه من نعيم، والنار وما فيها من عذاب. في جنة المعري وجحيمه، نجد ملامح واضحة من الجنة والجحيم المذكورة في حادثة الإسراء والمعراج، كما وردت في القرآن الكريم. لا شك أن

---

(١) ينظر: أدباء من المشرق والمغرب في الأدب المقارن، عيسى الناعوري، منشورات عويدات، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، ١١٦.

(٢) ينظر: شرح حديث الإسراء والمعراج، محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، د. ط، د. ت، ٦١.

(٣) ينظر: جديد في رسالة الغفران، عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، ٢٥-٣١.

(٤) ينظر: الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث، محمد الصالح سليمان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د. ط، ١٩٩م، ص ١١٠.

المعري استمد الكثير من مادته عن العالم الآخر من النصوص القرآنية، حيث يقدمها مع الشواهد القرآنية، مثل أنهار الماء غير الآسن، وأنهار اللبن الذي لم يتغير طعمه، وأنهار الخمر اللذيذة، وأنهار العسل المصفى. وقد أطلق على دار العذاب في عالمه الآخر الأسماء القرآنية مثل (النار، الجحيم، سقر)، كما استخدم مصطلحات مثل السعير، الزبانية، الأغلال، السلاسل، ومقامع الحديد. لذا، يمكننا أن نرى تشابهاً بين "رسالة الغفران" وحادثة الإسراء والمعراج في الموضوع، حيث تصف كل منهما رحلة إلى العالم الآخر يقوم بها النبي أو الأديب، حيث يلتقي بأناس من أهل السعادة وآخرين من أهل الشقاء، ويتحدث معهم ويصف منازلهم وبعض أسباب سعادتهم أو شقائهم.(١)

- **استلهام الحادثة في قصة حي ابن يقظان لابن طفيل الغنوي:**

تعد قصة حي بن يقظان عملًا فريدًا في الأدب العربي، فهي تجمع بين السرد القصصي والتأمل الفلسفي الصوفي، وتحمل أبعادًا رمزية عميقة حول رحلة النفس نحو الكمال. وعلى الرغم من أن المؤلف ابن طفيل لا يذكر الإسراء والمعراج بشكل مباشر، فإن رمزية الصعود المعرفي والروحي التي يمر بها البطل تُحاكي بوضوح بنية حادثة المعراج، مما يجعل النص مثالًا أدبيًا وفلسفيًا على استلهام تلك الرحلة النبوية في سياق رمزي وتجريدي.

على الرغم من أن حي بن يقظان لا تذكر الإسراء والمعراج مباشرة، إلا أنها تستلهم من فلسفة المعراج فكرة الصعود الروحي للذات المفكرة نحو الحق، عبر التأمل والمعرفة. وهذا ما يجعل الرواية أقرب إلى نص ميتافيزيقي يشترك في بنيته الرمزية مع حادثة المعراج.(٢)

حي بن يقظان هو طفل ينشأ في جزيرة منعزلة، ويتربى في كنف الطبيعة، ويتعلم من ملاحظاته واستنتاجاته العقلية. شيئًا فشيئًا، ينتقل من ملاحظة المحسوسات إلى إدراك المجردات، ثم إلى إدراك الذات الإلهية، وصولًا إلى الاتحاد الروحي.(٣)

- **المعراج العقلي – من الحسي إلى المجرد:**

يمر حي بن يقظان برحلة عقلية تشبه مراحل المعراج النبوي. فيبدأ بتأمل الموجودات الحسية (النار، الماء، الكائنات الحية)، ثم ينتقل إلى إدراك القوانين الطبيعية، ثم إلى البحث في النفس، وأخيرًا إلى إدراك واجب الوجود. هذا التدرّج في المعرفة يشابه تدرّج النبي في المعراج من السماء الدنيا إلى السابعة، حيث يلتقي بالأنبياء ثم ينتهي إلى سدرة المنتهى.(٤)

(١) ينظر: في الأدب المقارن، عبد الرزاق حميدة، مكتبة الأنجلو المصرية، د. ط، د. ت، ص ٩٢.

(٢) ينظر: حي بن يقظان، محمد بن عبد الملك ابن طفيل، تحقيق حسين مؤنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ط، ٢٠٠٥، ص٨٨–١١٠.

(٣) ينظر: حي بن يقظان، ص٢١–٩٥.

(٤) ينظر: الرحلة المعرفية في حي بن يقظان: قراءة في البنية الرمزية، محمد فرحات، مجلة فكر وفن، العدد ٣، ٢٠٠٧، ص١١٢–١١٣.

العروج الصوفي والتجلي الروحي:

في القسم الأخير من القصة، يصل حي إلى حال من الفناء في التأمل الروحي، حيث يُعرض عنه العالم المادي، ويفنى عن ذاته، ويصل إلى الإدراك المباشر للحق. هذا التحول يُحاكي في الأدب الصوفي لحظة "المعراج القلبي"، حيث يصل العبد إلى المقام الذي يصفه الصوفية بـ"الشهود". وهو أقرب إلى المعراج النبوي بوصفه تمثيلًا للقاء مع الذات الإلهية، وإن كان الفرق بين النبي والفيلسوف محفوظًا.(١)

المقارنة بين المعراج النبوي والمعراج الفلسفي:

ابن طفيل يتبنّى، بشكل غير مباشر، ما يُعرف في الفلسفة الإسلامية بـ"المعراج العقلي" أو "الروحاني"، وهو مفهوم طوّره الفارابي وابن سينا، واعتبروه موازيًا للمعراج النبوي لكن على مستوى الفيلسوف العارف. فكما صعد النبي بجسده وروحه إلى السموات، يصعد حي بن يقظان بعقله وروحه عبر مدارج المعرفة.(٢)

تُجسد قصة حي بن يقظان رحلة الإنسان نحو الحقيقة، وتوظف رمزية المعراج في شكلٍ عقلاني وفلسفي، يمثل التدرج من الحس إلى المعقول، ومن المعقول إلى الإشراق الروحي. وبهذا، تؤكد الرواية أن حادثة الإسراء والمعراج ليست حكرًا على النص الديني، بل تُلهم الفكر الفلسفي والصوفي لتقديم صيغ رمزية للمعرفة والارتقاء الوجودي.

المبحث الثاني: استلهام الإسراء والمعراج في السرديات الفلسفية والتاريخية:

لقد تجاوز أثر هذه الحادثة الإطار العقدي المباشر ليشكّل مرجعًا غنيًا في الحقول الفكرية المتعددة، لا سيّما في السرديات الفلسفية والتاريخية التي سعت إلى تأويلها ضمن أنساق معرفية وروحية معقدة.

وقد اتخذت هذه السرديات منحًى تعدّديًا؛ فبينما تناولها الفلاسفة المسلمون —كالفارابي وإخوان الصفا وابن طفيل الغنوي— بوصفها تجربة رمزية لارتقاء النفس العاقلة إلى مدارج الكمال والاتصال بالعقل الفعّال، عمد المؤرخون والكتّاب إلى توثيق تفاصيلها بأدوات السرد الزمني والمعجزاتي، فكانت بحق لحظة جامعة بين الحدث والرمز، بين الإيمان والتأويل، بين العقل والنص.

(١) ينظر: رمزية التجلي والمعراج في حي بن يقظان، صلاح النقاش، مجلة الثقافة المغربية، العدد ٢٥، ٢٠٠٤، ص٦٧–٧٠.

(٢) ينظر: الصعود إلى الحقيقة: فلسفة المعراج عند ابن سينا وابن طفيل، عبد الفتاح درويش، دار التنوير، بيروت، ٢٠٠٨، ص٩٢–١٠٤.

١. رسائل إخوان الصفا:

تناولت بعض رسائل إخوان الصفا المعراج بوصفه نموذجًا للترقي العقلي والروحي، حيث يستعملونه كرمز لصعود النفس إلى عالم الكواكب والملائكة، مما يعكس البُعد الفلسفي الباطني للحدث.(١)

٢. المنقذ من الضلال للإمام الغزالي

في هذا النص السيري الفلسفي، يستحضر الغزالي فكرة المعراج لا كحادثة تاريخية، بل كرمز للانتقال من الشك إلى اليقين، ومن العلم الظاهري إلى المعرفة الحقيقية. يشبّه رحلته الروحية برحلة المعراج من الظلمة إلى النور، من الحيرة إلى الهداية.(٢)

٣. الفتوحات المكية لابن عربي:

في الفتوحات المكية، خصّص الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي فصولًا رمزية وتأويلية عن الإسراء والمعراج، معتبرًا أن كل مؤمن قد يُسرى به روحيًا إذا سلك طريق المعرفة. عرض ابن عربي المعراج على أنه نموذج للتدرّج في المقامات الروحية.(٣)

المبحث الثالث: استلهام الحادثة في السرديات الروائية الحديثة:

- **في رواية عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم:**

يتجاوز توفيق الحكيم في روايته عصفور من الشرق التوثيق الواقعي لحياة المشرق أو الغرب، متوغلاً في رمزية عميقة تعبّر عن صراع الذات بين عالمين: الشرق الروحي، والغرب المادي. وقد لجأ الحكيم إلى توظيف صورة الإسراء والمعراج توظيفًا رمزيًا، يُعبر من خلاله عن رحلة بطل الرواية النفسية والوجودية، من الأرض إلى السماء، ومن الظلمة إلى النور، مستلهِمًا أبعاد هذه الحادثة الإسلامية الكبرى في سياق حداثي.

السياق العام للرواية:

تتناول عصفور من الشرق رحلة بطل الرواية "محسن" إلى فرنسا، وتعرّفه على فتاة فرنسية تُدعى "سوزي"، وتفاعله مع الحياة الغربية بكل ما فيها من صخب وحضارة مادية. يعاني محسن من أزمة هوية واغتراب حضاري، وتأتي حادثة الإسراء والمعراج كرمز داخلي يعكس صراعه بين الوجود المادي في الغرب والتوق الروحي إلى المشرق ((٤)).

(١) ينظر: رسائل إخوان الصفا، إخوان الصفا، تحقيق: عارف تامر، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧، ج٤، ص١١٠-١٢٥.

(٢) ينظر: المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، تحقيق: جمال الدين الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٦، ص٤٤-٦١.

(٣) ينظر: الفتوحات المكية، محيي الدين ابن عربي، تحقيق: عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، ٢٠٤/١-٢٣٥.

(٤) الحكيم، توفيق، عصفور من الشرق، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٤، ص٧.

المعراج النفسي لمحسن:

يشير الحكيم ضمنيًا إلى أنّ محسن يمرّ بـ"معراج نفسي"، لا يحدث في السماء بل في أعماقه، حيث يصل إلى لحظة وعي روحي بعد التشتت والضياع. ويبدو هذا واضحًا في المقطع الذي يصف فيه لحظة صفاء داخلي وهو يتأمل صورة "الشرق" بعيدًا عن الغرب:

"شعر فجأة بأنّه يريد أن يصعد... أن يعلو فوق المباني، فوق الأجساد، فوق باريس كلها... يريد أن يعانق روحًا ترفرف هناك... أن يعود إلى ذلك الضوء الشرقي، النور الأول، البداية الأولى"[(١)].

هذا الصعود الداخلي يشبه لحظة "المعراج" في بعدها الرمزي، حيث يتحرر الفرد من قيود الجسد والزمان والمكان، ويبحث عن الكمال واليقين، تمامًا كما حدث مع النبي في حادثة المعراج.

التناقض بين المادي والروحي:

في الرواية، يُقدَّم الغرب (باريس تحديدًا) بوصفه عالَمًا ماديًا صاخبًا، يخلو من الروح، بينما يُرمز إلى الشرق باعتباره عالمًا روحانيًا متأمّلًا. وهنا تبرز فكرة الإسراء والمعراج بوصفها انتقالًا من عالم مادي (المسجد الحرام) إلى عالَم مقدّس سماوي (السماوات العُلى)، انتقالًا يرمز إلى السمو والارتقاء. ويوظّف الحكيم هذه الفكرة ليقول إن الإنسان لا بد أن يخرج من العالم الأرضي – ولو رمزيًا – ليصل إلى الحقيقة[(٢)].

المفارقة الحضارية والانعتاق

كما تمثل حادثة المعراج انفصالًا مؤقتًا عن العالم الأرضي وعودةً بنظرة جديدة، فإنّ محسن أيضًا يخرج من تجربته في الغرب بنوع من "المعرفة"، حتى وإن كانت مؤلمة. وكأنّه عاد من "رحلة معراج حضاري"، أدرك فيها أنّ الروح التي افتقدها في باريس لا يمكن أن توجد إلا في المشرق، في القلب، في الإيمان، في الذات الحقيقية. وهو ما يتقاطع مع دلالة المعراج كرحلة كشف ووعي ورجوع.

يمكن القول إنّ توفيق الحكيم لم يذكر حادثة الإسراء والمعراج صراحة في عصفور من الشرق، لكنه ألبسها رمزًا فلسفيًا عميقًا، إذ جعل بطل الرواية يمرّ بتجربة وجودية تشبه هذه الحادثة في دلالتها على الصعود، النور، والانعتاق من العالم الأرضي نحو المطلق. ومن هنا، تنفتح الرواية على أفق تأويلي غني، يجمع بين الرمزية الدينية والتحليل الحضاري والنفسي.

---

(١) عصفور الشرق، توفيق الحكيم، ص ١٠٢.

(٢) رمزية الحوادث الدينية في الأدب العربي الحديث، عبد المجيد إبراهيم، مجلة فصول، المجلد ١٢، العدد ١، ١٩٩٣، ص٨٨.

- **استلهام حادثة الإسراء والمعراج في رواية رحلة ابن فطومة لنجيب محفوظ**

تعدُّ رحلة ابن فطومة (١٩٨٣) من أبرز الأعمال الرمزية التي كتبها نجيب محفوظ في مرحلة ما قبل نيله جائزة نوبل، وقد نسج فيها حبكة سفرية تتجاوز الطابع الجغرافي إلى تأملات فكرية وجودية. ومَن يتأمل مسار الرحلة التي يخوضها البطل " قنديل ابن فطومة" يلحظ أن محفوظ يستلهم —بطريقة رمزية شديدة الوضوح— بنية رحلة الإسراء والمعراج، سواء من حيث ترتيب المحطات، أو من حيث تصعيد التجربة الذاتية في البحث عن "دار الحق"، التي تمثل في الرواية رمزًا للحقيقة المطلقة أو المدينة الفاضلة.

- **ملامح التوازي بين الرحلتين:**

تقوم رحلة ابن فطومة على فكرة الانتقال بين أمم مختلفة (دار السلام، دار الحروب، دار الأمان...)، تمامًا كما انتقل النبي بين السماوات في حادثة المعراج، وقد استلهم محفوظ هذا البناء التدرّجي للسمو الروحي والمعرفي، بحيث تمثّل كل دار محطة اختبار وتطهير وإعداد للبلوغ.

كما يُلاحظ أن البطل لا يصل إلى "دار الحق" في نهاية الرواية، بل ينتهي النص عند أعتابها، في تكرار فني لما يصفه الصوفيون بـ"المقام دون الوصول"، أي أن الوصول إلى الحقيقة الكبرى لا يكون بالعين المجردة، بل بالإيمان والنية والسعي، وهو ما يذكّر بوصف النبي لمعراجه بقوله: «ثم دنا فتدلّى...».

وقد عبّر محفوظ عن ذلك في الرواية على لسان الراوي:

"أشعر أنني صرت غير الذي كان، وأن كل ما مررت به لم يكن إلا إعدادًا لما هو آتٍ... فهل أنا قريب من دار الحق؟"(١)

الرمزية الصوفية والمعراج الروحي:

يتقاطع خطاب الرواية مع الخطاب الصوفي القائم على السفر إلى الله عبر منازل ومقامات، وهي بنية تشبه ما جاء في التأويلات الرمزية لحادثة المعراج، خصوصًا عند أمثال السهروردي وابن عربي، حيث تُقرأ الحادثة بوصفها انتقالًا من الحس إلى المعنى، ومن العالم السفلي إلى "العقل الأول" أو "الوجود المطلق".

(١) رحلة ابن فطومة، نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة، د. ط، ١٩٩٤م، ص ١٠١.

وتأتي "دار الحق" —التي يسعى إليها ابن فطومة— في منزلة تشبه رمزية "سدرة المنتهى" في المعراج، فهي الغاية، والنهاية، والمكان الذي "لا يبلغه أحد إلا بإذن"، وهو ما يتجلى حين يُقال للبطل إن دخول دار الحق مشروط بالاستعداد النفسي والروحي الكامل.

الصراع بين الواقع والمطلق:

كما في حادثة المعراج، حيث عاد النبي ﷺ إلى مكة بعد المشاهدة، يعود ابن فطومة دومًا إلى التساؤل بين "الوعد الإلهي" و"الواقع المادي"، بين "الإيمان" و"الخبرة"، وهو ما يظهر في حواره مع نفسه:

"هل كانت الرحلة سفرًا في الأرض، أم في النفس؟ وهل كل ما رأيته كان واقعًا أم رؤيا؟"(١)

هذا التساؤل يحيل إلى الجدل القديم بين العلماء حول طبيعة المعراج: هل كان جسديًا أم روحيًا؟ رؤيا أم واقعًا؟ وهي أسئلة فتح فيها المتصوفة باب الرمزية، وجعلوا من المعراج رمزًا لرحلة النفس الصافية في معارج القرب الإلهي.(٢)

وقد عالج العديد من الباحثين هذا البُعد الرمزي الصوفي، وأشار بعضهم — مثل سيد حسين نصر— إلى أن المعراج في التراث الصوفي يمثل نموذجًا للارتقاء الروحي عبر مقامات "الروح" و"العقل" و"السر"، وهي بنية شديدة الشبه بالترتيب الرمزي لرحلة ابن فطومة(٣).

السرد التاريخي بوصفه إطارًا معرّجًا:

ينطلق النص من بنية تُحاكي السرديات التاريخية الإسلامية، خصوصًا تلك التي تسجل أخبار الرحلات (مثل رحلة ابن بطوطة أو المقدسي)، إلا أن محفوظ ينقلب على هذا الإطار بتضمين رؤى فكرية ونقدية تجعل السرد "معرّجًا"، أي متجاوزًا للوقائع نحو الرمز. وهنا يتقاطع العمل مع نظرة عبد الفتاح كليطو للسرد العربي بوصفه بحثًا عن المعنى لا مجرد الإخبار(٤).

إن رحلة ابن فطومة ليست فقط سردًا وجوديًا عن البحث عن الحقيقة، بل هي نص معاصر يستلهم بنية الإسراء والمعراج ليعيد إنتاجها في شكل روائي فلسفي. وقد نجح نجيب محفوظ في تقديم المعراج بوصفه رحلة كونية داخلية، ينتقل فيها البطل عبر محطات "الاختبار والانتظار" لينتهي به الحال إلى أعتاب "دار الحق"، حيث تتوقف الكلمات، ويبدأ التأمل.

تبيّن هذه النماذج أن قصة الإسراء والمعراج تجاوزت كونها حدثًا عقائديًا لتُصبح رمزًا مركزيًا في النصوص النثرية العربية، تتنوع دلالاتها بين الترقي الروحي، البحث الفلسفي عن

---

(١) رحلة ابن فطومة، ص ١٠٥.

(٢) تحليل الخطاب الروائي: البنية والدلالة والتلقي، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، د. ط، ٢٠٠٠، ص ٢٢٦.

(٣) ، الرحلة إلى الله: في المعراج والتصوف الإسلامي، سيد حسين نصر، دار المدار الإسلامي، بيروت، د. ط، ٢٠٠١م، ص ٨٩.

(٤) الأدب والغرابة، عبد الفتاح كليطو، دار توبقال، الدار البيضاء، د. ط، ١٩٨٢م، ص ٧٧.

الحقيقة، والانعتاق من الظاهر إلى الباطن. وقد أمدّت الأدب العربي بمـــادة خـــصبة للتحـــول والتأويل، مما يجعلها أحد أهم الرموز التي تفاعلت مع الأنساق الأدبية والفكريـــة علـــى مـــر العصور.

الخاتمة والنتائج :

لا شك أنّ حادثة الإسراء والمعراج قد تجاوزت الإطار العقائدي لتصبح مادةً غنيّة للأدب العربي في مختلف عصوره، حيث أضفت عليه بعدًا روحانيًا ورمزيًا، فعبّرت عن هموم الإنسان في سعيه إلى الحقيقة. ومن خلال تتبّع هذه المرويات في المتن الأدبي، يتضح كيف تسهم النصوص الدينية في تشكيل المخيال الأدبي وتغذيته.

النتائج :

١. شكّلت حادثة الإسراء والمعراج نموذجًا سرديًا تأسيسيًا في كتب السيرة النبوية والتفاسير، حيث تم عرضها بلغة إعجازية عجائبية.
٢. اتسم هذا التمثّل بالاهتمام بالتفاصيل المكانية (المسجد الأقصى، السماوات السبع، سدرة المنتهى) والزمنية، مع حضور واضح للرؤية الأخلاقية والوعظية.
٣. لم يكن التأويل الرمزي حاضرًا بشكل مباشر، بل كان التركيز منصبًا على التلقي الإيماني، وتثبيت العقيدة في مواجهة المشككين.
٤. تحوّلت الحادثة في الخطاب الصوفي من سرد خارجي إلى رحلة داخلية رمزية ترمز لاتحاد النفس بالمطلق، والصعود عبر مقامات السلوك والأنوار.
٥. رأى ابن عربي في المعراج صورة رمزية للممكنات التي تبلغ ذروتها بالاتحاد بالحقيقة، كما في "الفتوحات المكية"، حيث المعراج يصبح نموذجًا لعروج الوليّ بعد النبي.
٦. عند السهروردي، اتخذ المعراج طابعًا إشراقيًا، حيث فُسّر بوصفه انتقالًا من العالم الحسي إلى عالم الأنوار والحقائق، وهو ما يظهر بجلاء في رسالته "الغربة الغربية".
٧. مثّلت هذه القراءة انزياحًا من الواقعة التاريخية إلى البنية الرمزية الفلسفية، وقد اتسعت لتؤثر في العديد من المقاربات الأدبية لاحقًا.
٨. استخدم الأدب الحديث حادثة المعراج باعتبارها بنية سردية مرنة، يمكن أن تتحوّل إلى أداة لتفكيك الواقع السياسي والاجتماعي والروحي.
٩. في رحلة ابن فطومة لنجيب محفوظ، أُعيد إنتاج بنية المعراج من خلال رحلة البطل عبر "الدور"، في محاكاة رمزية للارتقاء في درجات المعرفة والبحث عن الحقيقة.
١٠. في شعر أدونيس، ظهر المعراج كاستعارة شعرية للتمرد على القمع السياسي، والتحليق في فضاءات حرية ميتافيزيقية، من خلال تجاوز الواقع العربي المأزوم نحو "فضاء الخلق".

١١.مثّلت هذه التمثّلات انفتاحًا على التأويل الحداثي، حيث الحادثة لم تعد مجرد خبر غيبي، بل نموذجًا فلسفيًا وجماليًا لصوغ علاقات الذات مع الكون، والزمن، والسلطة، والمعنى.

١٢.هناك تمايز جلي بين تمثّلات الإسراء والمعراج في المراحل الثلاث: من السرد التوثيقي التراثي، إلى الرمز الصوفي، إلى القراءة الحداثية المفتوحة.

١٣.أظهرت الحادثة قدرة هائلة على إعادة التشكل الفني والمعرفي بما يتناسب مع الرؤى والتحولات في الثقافة العربية، مما يؤكد أنها نموذج حيّ للتفاعل بين النص الديني والثقافة الأدبية.

١٤.تمثّلات المعراج الحديثة لا تلغي الأصل الديني، بل تعيد توظيفه وفق حاجات العصر: في الوعي، والهوية، والحرية، والتجاوز.

المصادر والمراجع :

١. الأدب والغرابة، عبد الفتاح كليطو، دار توبقال، الدار البيضاء، د. ط، ١٩٨٢م.
٢. أدباء من المشرق والمغرب في الأدب المقارن، عيسى الناعوري، منشورات عويدات، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م.
٣. تحليل الخطاب الروائي: البنية والدلالة والتلقي، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، د. ط، ٢٠٠٠.
٤. جديد في رسالة الغفران، عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.
٥. الحكيم، توفيق، عصفور من الشرق، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٤م.
٦. حي بن يقظان، محمد بن عبد الملك ابن طفيل، تحقيق حسين مؤنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
٧. الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث، محمد الصالح سليمان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د. ط، ١٩٩م.
٨. رحلة ابن فطومة، نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة، د. ط، ١٩٩٤م.
٩. الرحلة المعرفية في حي بن يقظان: قراءة في البنية الرمزية، محمد فرحات، مجلة فكر وفن، العدد ٣، ٢٠٠٧م.
١٠. الرحلة إلى الله: في المعراج والتصوف الإسلامي، سيد حسين نصر، دار المدار الإسلامي، بيروت، د. ط، ٢٠٠١م.
١١. رسائل إخوان الصفا، إخوان الصفا، تحقيق: عارف تامر، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
١٢. رمزية التجلي والمعراج في حي بن يقظان، صلاح النقاش، مجلة الثقافة المغربية، العدد ٢٥، ٢٠٠٤م.
١٣. رمزية الحوادث الدينية في الأدب العربي الحديث، عبد المجيد إبراهيم، مجلة فصول، المجلد ١٢، العدد ١، ١٩٩٣، ص٨٨.
١٤. شرح حديث الإسراء والمعراج، محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، د. ط، د. ت.
١٥. الصعود إلى الحقيقة: فلسفة المعراج عند ابن سينا وابن طفيل، عبد الفتاح درويش، دار التنوير، بيروت، ٢٠٠٨م.
١٦. الفتوحات المكية، محيي الدين ابن عربي، تحقيق: عثمان يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

١٧. في الأدب المقارن، عبد الرزاق حميدة، مكتبة الأنجلو المصرية، د. ط، د. ت.
١٨. المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، تحقيق: جمال الدين الكيلانـــي، دار المعرفـــة، بيـــروت، ٢٠٠٦م.